المؤاخذة بالمعصية

كل مَنْ عصى اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فهو تحت المؤاخذة إلا أنْ يغفرَ اللّهُ ذنبه، والمؤمن قد يُؤاخَذ بمعصيته في الدنيا، ويحصل له من البلاء ما يُطهر ذنبه، ويُعلي درجته، وقد يؤاخذُ اللّهُ بعضَ أنبيائه في الدنيا بسبب معصية صغيرة تقع منهم.

ومن ذلك:

آدم عليه السلام.. ومعصيته للأمر الإلهي:

فآدم عليه السلام الذي لم تكُنْ معصيته إلا أنه خالف الأمر الإلهي بأَكْلِه من شجرة، نهاه أنْ يأكلَ منها، ومعصية آدم بالأكل من الشجرة فإنها لم تكُنْ فاحشة في ذاتها، ولا إثماً لولا المعصية.

فقد أباح اللّهُ لآدم الأكلَ من كل أشجار الجنة، فليس الأكل من هذه الشجرة مُذْهِباً لعقل، ولا ضاراً في النفس أو البدن، ولا تعدِّياً على حقِّ مخلوق، ونحو ذلك مما هو من تعليل الإثم.

وإنما كانت معصيةُ آدم فيما أخبرنا اللّهُ به في أنه أطاع الشيطانَ الذي حذَّره اللّه من طاعته، وأنه عصى اللّهَ فيما أمره به.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ومع ذلك، كان من آثار هذه المعصية آلامٌ طويلة في الدنيا، منها: خروج آدم وزوجه من الجنة، وتعرُّضه هو وذريته لما يتعرَّضون له من البلاء في هذه الدار.. وإلى يوم القيامة.

نوح عليه السلام ووعْظ اللّه له:

وهذا نبيُّ اللّه نوح عليه السلام، سماه عبداً شكوراً، وكان من أُولِي العزم من الرسل وقد قام في عبادة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، يتحمل في أثنائها الكربَ الطويل والأذى البالغ.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦].

ولما دعا نوح عليه السلام ربه قائلاً: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥]، أجابه الله سبحانه: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

فقال العبد الصالح: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

فاعترف عليه السلام بذنبه، وأنه قد قال قولاً لا علمَ له به!!.

يونس عليه السلام والسجن في بطن الحوت:

وهذا يونس عليه السلام عاقبه الله لأنه ترك قومه الذين كذّبوه وآذوْهُ، دون أن يأذنَ الله له، فسُجِنَ في بطن الحوت إلى أنْ تداركتْه رحمةُ الله بالخروج، ضعيفاً مريضاً.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وقال تعالى:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

obeikandl.com

الوعيد بالعذاب لقبول الفداء من الأسرى

ونبينا عليه السلام عاتبه اللّه سبحانه بعد قبوله فداء الأسرى، ويقول: «لقد عُرِضَ عذابُكم أدنى من هذه الشجرة»!!.

فقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: «لما كان يومُ بدر قال: نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيّف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القِبْلة، ثم مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: اللّهم أين ما وعدتني؟ اللّهم أنجز ما وعدتني، اللّهم إنك إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبداً».

قال: فما زال يستغيث ربه عزَّ وجلَّ ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأخذ (أبو بكر) رداءه فردَّه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي اللّه كفاكَ مناشدتك ربك، فإنه سيُنجز لك ما وعدك. وأنزل اللّه عزَّ وجلّ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩].

فلما كان يومئذٍ والتقوا، هزم اللّه عزَّ وجلَّ المشركين، فقُتِلَ منهم سبعون رجلاً، وأُسِرَ منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسول اللّه ﷺ أبا بكر وعمر رضي اللّه عنهما، فقال أبو بكر رضي اللّه عنه: يا نبيَّ اللّه، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أنْ تأخذَ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى اللّه أنْ يهديَهم فيكونون لنا عَضُداً، فقال رسول اللّه ﷺ: ما ترى يابنَ الخطاب؟

قال: قلتُ واللّه ما أرى رَأْيَ أبي بكر، ولكني أرى أنْ تُمكنني من فلان ـ قريبٌ لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتُمكِّن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، حتى يعلمَ اللّه أنه ليستْ في قلوبنا هوادةٌ للمشركين. هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم!!.

فهوى رسول اللّه ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، فأخذ منهم الفداء.

فلما أنْ كان من الغد قال عمر رضي اللّه عنه: غدوت إلى النبي ﷺ، فإذا هو قاعد، وأبو بكر رضي اللّه عنه وإذا هما يبكيان!! فقلت: يا رسولَ اللّه، أخبرني

ماذا يُبكيك أنت وصاحبك؟ فإنْ وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإنْ لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائكما!!.

قال: فقال النبي ﷺ: «الذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، لقد عُرِض عليَّ عذابُكم أدنى من هذه الشجرة»، لشجرة قريبة، وأنزل اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

ثم أحلَّ لهم الغنائم، فلما كان يوم أُحُد من العام المقبل عُوقِبوا بما صنعوا يوم بدر من أَخْذهم الفداء، فقُتِلَ منهم سبعون، وفرَّ أصحابُ النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكُسِرَتْ رَبَاعيَته وهُشِّمَت البيضةُ على رأسه وسال الدمُ على وجهه، وأنزل اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، بأَخْذكم الفداء» [رواه أحمد].

والرسل ـ عليهم السلام ـ يخافون ذنوباً، لو كانت لأحدنا لَعدَّها من الطاعات والقربات.. فمَنْ منا لا يتمنى أنْ يكونَ صنع ما صنع إبراهيم عليه السلام من كذبه على قومه عُبّاد الأصنام، عندما قال لهم: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

حتى يحطم أصنامهم، ويُرجِعهم إلى عقولهم ورُشْدهم؟! ومَنْ منّا لا يتمنى أن يقولَ عن زوجته هي أختي ينقذها ونفسه من جبار كافر أراد أنْ يقتله ويستحوذ على زوجته!! ومع ذلك يقول إبراهيم عليه السلام يوم القيامة معتذراً عن التصدُّر للشفاعة، خائفاً من معصيته!!:

«وإنّي قد كذبتُ ثلاث كذبات!!» [رواه البخاري].

وهذا نبي اللّه موسى عليه السلام، وهو من أُولي العَزْم من الرسل، يقتل نفساً قتلاً شبهَ عَمد وليس عَمْداً، ويقتله بغير قَصد قَتْله، يقتله دفاعاً عن مظلوم، وهذا الفعل منه كان قبل الرسالة، ومع ذلك يقول: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

ومع ذلك يظل موسى خائفاً من فِعْلَتِهِ هذه إلى يوم القيامة، ويقول: «إن ربي قد غضب اليومَ غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد عصيتُ ربي، فقتلتُ نفساً لم أُومَر بقتلها» [رواه البخاري].

ومَنْ منّا لا يتمنى أنْ يكونَ صنع ما صنع موسى في دفاعه عن مظلوم من قومه!!.

ازدياد الخوف من اللّه
مع زيادة الإيمان ونقص الخوف مع نقص الإيمان

كلما تبلَّد الشعور، وزاد البُعْد عن مصدر النور، زال الإحساس بالذنب، فالكفار يكفرون ويُجرمون ويفسقون وهم يضحكون، والفاجر والمنافق يرى ذنبه كأنه ذبابٌ يحطُّ على أنفه، لو أشار إليه بيده ردَّه، والمؤمن يرى ذنبه كالجبل يوشك أنْ يسقطَ عليه.

وكان أنس بن مالك يقول ـ وكان قد عمّر زماناً بعد النبي ﷺ ـ: «إنكم تعملون أعمالاً، كُنَّا نعدُّها من الكبائر على عهد رسول اللّه ﷺ، وهي في أعينكم أصغرُ من الشعر».

ألوان وأنواع العقوبات لعُصاة المؤمنين

كل ذنب داخلٌ في الحساب، إلا ما يغفره اللّه، قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وبعض العُصاة من الموحّدين قد يُعذَّبون في النار، أو في القبر، أو في الحشر في صغائر من الذنوب، وفي كبائرَ يظنُّها بعض الناس صغائرَ، فامرأة يراها النبي في النار في هرَّة حبستها، حتى ماتت جوعاً. وقتيل مع الرسول ظنَّهُ الصحابة شهيداً، فقال النبي ﷺ: «كلا.. إني رأيتُهُ في النار في بُرْدَة غلَّها»، [رواه مسلم] ولم تكن هذه البُرْدَة تساوي أربعةَ دراهم!!.

والرجل يتكلم بالكلمة من سخط اللّه تعالى، لا يُلقي لها بالاً، فتهوي به في النار سبعين خريفاً.. ونساءٌ كثيراتٌ من أهل التوحيد يدخلْنَ النارَ لأنهن يُكْثِرْنَ اللعنَ، ويَكفُرْنَ العشير!!.

ورجال يُحْبسُونَ في النار في ردغة الخبال، ووسط عصارة وصديد أهل النار؛ لأنهم تكلموا في إخوانهم المسلمين بغير حق. قال رسول اللّه ﷺ: «مَنْ حالتْ شفاعته دون حَدّ من حدود اللّه فقد ضادَّ اللّه، ومَنْ خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزلْ في سخط اللّه حتى ينزعَ عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه اللّه رَدْغَةَ الخبال، حتى يخرج مما قال»، [رواه أبو داود].

والوعيد الشديد لعُصَاة أهل التوحيد يشمل المعاصي كلها، صغيرها وكبيرها، فقاتِل النفس عَمْداً يقول اللّه فيه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وآكِلُ الربا يقول الله فيه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والكنّازون مانعو الزكاة، يقول الله في وعيدهم: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

في هذا يقول النبي ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها إلا كان يوم القيامة صُفِحَتْ له صفائحُ من نار، فأُحْمي عليها في نار جهنم، فَيُكْوَى بها جنبه، وجبينه، وظهره، كلما بردتْ أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار»، [رواه مسلم].

والذي يقتطع حَقَّ امرىءٍ مسلم بيمينه ـ ولو كان هذا المقتطَع شيئاً يسيراً ولو عوداً من أراك ـ فقد أوجب اللّهُ له النار، وحرَّم عليه الجنة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وفي هذا يقول النبي ﷺ: «مَن اقتطع حَقَّ امرىء مسلم بيمينه، فقد أوجب اللّه له النار، وحرَّم عليه الجنة»، فقال رجل: وإنْ كان شيئاً يسيراً يا رسولَ اللّه؟ فقال: «وإنْ قضيباً من أَرَاك»، [رواه مسلم].

ورأى النبي ﷺ رجلاً من أصحابه لبس خاتماً من ذهب، فاقتلعه النبي من إصبعه ورمى به قائلاً: «يعمدُ أحدُكم إلى جَمْرَة من نار، فيجعلها في يده»، [رواه مسلم].

وامرأة كانت من أهل النار، لأنها تؤذي جيرانها بلسانها، وفقير من فقراء المهاجرين، عُذِّبَ في قبره لأنه مات وكان عليه ديناران لم يسددهما!! وظلَّ يُعذَّب حتى تصدَّق عليه أبو قتادة، وسدَّد عنه دينه!!.

ورجل يُعذَّب في قبره، لأنه كان لا يستنزه من بوله، وآخر يُعذَّب لأنه يمشي بالنميمة بين الناس، وقال رسول اللّه ﷺ: «لا يدخل الجنةَ قتَّات»، أي: نمّام... و«لا يدخل الجنةَ قاطع»!! و«لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»!! و«الكبر بَطَر الحق وغَمْط الناس».. وكم يقع مثل هذا!!.

اللَّهم إني أستغفرك لذنبي، وأعوذ بك من شر نفسي وسيئات عملي.

ومما قَصَّه النبي ﷺ من عذاب عُصَاة المؤمنين قوله: «إنه أتاني الليلة آتيانِ، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقتُ معهما، وإنَّا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فَيَثْلَغُ رأسه، فيتدهده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه، حتى يصحَّ رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به كما فعل به المرة الأولى. قال: قلت لهما: سبحان اللّه.. ما هذان. قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل مُسْتَلقٍ لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكَلُّوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقَّي وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحوَّل إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصحَّ ذلك الجانبُ كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما يفعل في المرة الأولى.

قال: قلت: سبحان اللّه ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على مثل التَّنُّور، وأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لَغَط وأصواتٌ فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة!! وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضوا. قال: قلت: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق!!.

قال: فانطلقتُ فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شَطِّ النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فَيَفْغَرُ له فاه، فيلقمه حجراً، فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فَغَرَ له فَاهُ فألقمه حجراً.

قال: قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على رجل كريه المرْآة، أو كأكره ما رأيتُ من راءٍ رجلاً مرآة، وإذا هو عنده نار يَحُشُّها ويسعى حولها.

قال: قلت لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حولَ الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قطّ.

قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا إلى روضة عظيمة لم أرَ روضةً قط أعظم منها، ولا أحسن. قال: قالا لي: ارْقَ فيها فارتقيتُ فيها، قال: فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا

بابَ المدينة، فاستفتحنا ففتح لنا، فدخلناها فتلقَّانا رجالٌ، شطر من خَلْقهم من أحسن ما أنت راءٍ، وشطر كأقبح ما أنت راء.

قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: إذا هو نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة قال: قالا لي: هذه جنة عدن، وهَذَاك منزلك، فسما بصري صعداً، فإذا قصر مثل الربابة البيضاء، قالا لي: هذاك منزلك؟ قلت لهما: بارك اللّهُ فيكما، فذراني فأدخله، قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله.

قلت لهما: فإني رأيتُ منذ الليلة عجباً، فما هذا الذي رأيت؟!.

قالا لي: أما إنَّا سنخبرك..

أما الرجل الأول الذي أتيتَ عليه يَثْلَغُ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الرجل الذي أتيتَ عليه يُشَرْشَرُ شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

أما الرجال والنساء العُرَاة الذين هم في مثل بناء التَّنور، فهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيتَ عليه يسبح في النهر، ويُلْقَمُ الحجارة فإنه آكلُ الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشُّها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم.

وأما الولدان الذين حوله، فكل مولود مات على الفطرة. وفي رواية البرقاني: «وُلدَ على الفطرة»، فقال بعض المسلمين: يا رسولَ اللّه، وأولاد المشركين؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «وأولاد المشركين».

وأما القومُ الذين كانوا شطرٌ منهم حَسَن، وشطرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز اللّه عنهم»، [رواه البخاري].

حَالُ المؤمن بين الخوف والرجاء

إن أهل الإيمان جميعاً يخافون، فالملائكة وهم خيرُ عباد اللّه يخافون معصية اللّه، والرسل وهم صفوةُ اللّه قد كانوا في خوف دائم من عذاب اللّه، وخيارُ أهل الإيمان كانوا في خوف وإشفاق دائم من العذاب، فلا أمنَ للمؤمن إلا بعد دخول الجنة، يقول اللّه سبحانه في الحديث القدسي لأهلها: (إني أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً)، وأما قبل ذلك فلا.

وأيضاً ملائكة اللّه يخافون العذاب، رغم أن اللّه سبحانه وتعالى قد وصفهم بالطاعة التامة، قال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴾ [فصلت: ٣٨].

وقال سبحانه عن أشد الملائكة خَلْقاً، وأعنفهم خُلُقاً، وهم ملائكة العذاب الموصوفون بأنهم ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ [التحريم: ٦]، قال تعالى عنهم: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

ومع ذلك، فإنهم في خوف دائم من اللّه سبحانه وتعالى، وحَذَر دائم من معصيته، وفَرَق ورُعْب منذ خلق اللّهُ النارَ. قال تعالى عنهم: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

وقد جاء في القرآن وعيدهم وتهديدهم بجهنم على المعصية.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۞ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ ٢٩].

إبليسُ هذا كان في يوم ما عابداً للّه مع الملأ الأعلى من الملائكة.. فلما عصى ربه، ولم يسجد لآدم كما أمره اللّه كان من شأنه ما قصَّ اللّهُ علينا في القرآن.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۞ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۞ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١١ـ ١٨].

فلما أصرَّ إبليسُ على كِبْره وعناده ولم يرجع عن معصيته، وأخذ على نفسه أنْ يُغْويَ آدم وذريته... قال له اللّه تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [صۤ: ٨٤، ٨٥].

وقال تعالى لإبليس أيضاً:

﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤١ـ ٤٤].

فإذا كان إبليسُ قد أفسد ماضيه في العبادة، ومنزلته في الملائكة بمعصية واحدة أصرَّ عليها، ولَجَّ في خصومته لربه، وعاند فيها. فكان جزاؤه اللعنة أبداً، والنار سرمداً، والخذلان في الآخرة والأولى.

ثم أصبحت نهايةُ إبليسَ ما قصَّ اللّه علينا في سورة إبراهيم من قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فهل بعد هذا يأمن عبدٌ من عباد اللّه أنْ تغشّه نفسه، ويخونُه تدبيره، ويعميه غروره، وتغريره، فيكون من الهالكين بمعصية واحدة يُصرُّ عليها، ويستكبر بها عن طاعة ربه، وكم من عابد وعالم غوَتْهُ نفسه وأطاع الشيطانَ فتحوَّل ليكون تابعاً ذليلاً للشيطان.

فكم أضلَّ الشيطانُ من أهل العلم والبصيرة، بل من أهل الطاعة والإنابة. قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وقال تعالى عن قوم سبأ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠].

وقال تعالى عن عاد: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

فانظر كيف أغواهم الشيطان علماً أنهم كانوا ذوي بصيرة ونظر!!.

وقال ﷺ: «ليُذادَنَّ أقوام من أمتي عن حوضي، أعرفهم ويعرفوني ويُؤخَذُ بهم جهة النار، فأقول: أصحابي أصحابي. فيقال: ليسوا أصحابك، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحْقاً سُحْقاً».

والملائكة الذين أقامهم اللّه في الطاعة، وألزمهم العبادة، وألهمهم التقوى

والمخافة، هم في طاعة ربهم، حيث يشاء ربهم، لا حيث يريدون هم.

وكان نبينا ﷺ يحب جبريل، وكيف لا يحبه وهو مُعلمه. قال تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٥ـ ٨].

وكيف لا يحبه وهو ناصره ووليُّه. قال تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤].

وكيف لا يحبه، وقد كان في حروبه أمامه، وعلى ميمنته، وكان نبينا ﷺ يقول لجبريل: «ألاَ تزورنا أكثرَ مما تزورنا؟!»، فنزل قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]، [رواه البخاري].

فإذا كان جبريلُ أمينَ اللّه على وَحيْه، ورسوله إلى رُسُله، لا يهبط إلى الأرض إلا بإذن ربه، ولا يزور محمداً ﷺ إلا برسم وأمر، فانظر كيف تكون طاعةُ الملائكة لربهم جلَّ وعلا.

وهذا إسرافيل قد التقم القرن وحَنَى جبهته، وأصاغ السمع، وانتظر متى يأمر اللّه بأن ينفخَ في الصُور!! ومنذ متى وهو على هذه الحال!! قائماً في الطاعة!! ملتزماً بالأمر... وجميعهم خائفٌ من اللّه سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل: ٥٠].

وقد جاء أنهم في خوف دائم منذ خلقَ اللّهُ النارَ.

رسل اللّه وأنبياؤه يخافون العذاب

وأما الرسل والأنبياء فهم أعظمُ البشر خوفاً من اللّه سبحانه وتعالى، وفَرَقاً من عذابه، وفراراً إليه!! مع ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة، والعبادة.

فهذا آدم منذ عصى اللّه بأنْ أكل من الشجرة التي نهاه اللّه أنْ يأكلَ منها، وهو خائف من العذاب، مع استغفاره ورجوعه إلى اللّه من ذنبه، مع ما حدث له بعد ذلك من الابتلاء بالخروج من الجنة ومقاساة العيش على ظهر الأرض.

وعندما يلتقي أبناءَهُ يوم القيامة يستشفع به أبناؤه إلى اللّه في القضاء بين العباد ودخول الجنة، قائلين له: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك اللّه بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلَّمك أسماء كل شيء، ألا تشفع لنا عند اللّه؟ فيقول لهم أبوهم آدم: وهل أخرجكم من الجنة إلا معصيةُ أبيكم؟ اذهبوا إلى غيري.

وفي حديث الشفاعة الطويل، يظل كلُّ رسول خائفاً من اللّه، فقد روى الإمام

البخاري عن أبي هريرة، قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ في دعوة، فَرُفعَ إليه الذراع، وكانت تُعجبه، فَنَهَسَ منها نَهْسَةً، وقال: «أنا سيدُ الناس يوم القيامة، هل تدرون ممَّ ذاك؟ يجمع اللّه الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغَمِّ والكرب ما لا يطيقون، ولا يحتملون.

فيقول الناس: ألاَ ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألاَ ترون إلى ما بلغكم؟ ألاَ تنظرون مَنْ يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعضُ الناس لبعض: أبوكم آدم، ويأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك اللّهُ بيده، ونفخ فيك من رُوحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة، ألاَ تشفع لنا إلى ربك؟ ألاَ ترى ما نحن فيه وما بَلغْنا؟ فقال: إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيتُ، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض، وقد سَمَّاكَ اللّهُ عبداً شكوراً، ألاَ ترى إلى ما نحن فيه؟ ألاَ ترى إلى ما بلغْنا، ألاَ تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوةٌ دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيمُ، أنت نبي اللّه وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألاَ ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذبات. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى، أنت رسول اللّه، فضَّلك اللّهُ برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألاَ ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت رسولُ اللّه وكلمتُهُ التي ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلَّمْتَ الناسَ في المهْد، اشفعْ لنا إلى ربك. ألاَ ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليومَ غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضبَ بعده مثله، ولم يذكر ذنباً. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

obeikandl.com

فيأتوني.. فيقولون: يا محمد أنت رسولُ الله، وخاتمُ الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر، اشفعْ لنا إلى ربك، ألاَ ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليَّ من محامده، وحُسْن الثناء عليه شيئاً لم يفتحْهُ على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سَلْ تُعْطَهْ، واشفعْ تُشَفَّع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب.

فيقال: يا محمد، أدخلْ من أمتك مَنْ لا حسابَ عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوَى ذلك من الأبواب، ثم قال: «والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَر أو كما بين مكة وبُصْرَى»، [متفق عليه].

فإذا كان هذا هو حال الرسل يوم القيامة، فما حالُ غيرهم من أهل الذنوب والمعاصي، وكان ﷺ أتقى العباد لله وأخوفهم منه، وأعلمهم به، وكان يُسْمَع لصدره أزيزٌ كأزيز المِرجَل من البكاء.

خوف المؤمنين الدائم من عذاب الله

المؤمنون حقاً في خوف دائم من عذاب الله إلى أنْ يدخلوا الجنة: فقد وصف الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أنهم كانوا في خوف دائم من عذابه، وفي تَرَقُّب وتوجُّس أنْ يقع بهم العذابُ في أيِّ لحظة، وإشفاق دائم مما هُمْ مُقْدِمُونَ عليه.

فالله يقول واصفاً عباده المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧، ٢٨]، والإشفاق غاية الخوف، ونهاية الرعب.

يقول سبحانه واصفاً عباده المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨ ـ ٦١].

وهؤلاء المؤمنون خائفون، مع أنهم يُصَلُّون ويصومون ويتصدَّقون، ففي مسند الإمام أحمد أن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله، الذين يُؤْتُونَ ما آتَوْا وقلوبهم وَجِلَة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، ويخاف الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «لا، يا ابنة الصِّدِّيق، ولكنه الذي يُصلِّي ويصوم ويتصدَّق، وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ».

فهُم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مُشفقون من الله، خائفون وَجِلُونَ منه سبحانه، قال الحسن البصري: «إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً».

فلا يشعر بالأمن والأمان إلا الكفار والمنافقون الذين غرَّتهم أنفسهم، وَرَأَوْا سيِّئَ أعمالهم حَسَناً، وأن اللّه ما دام قد أعطاهم في الدنيا الأموالَ والأولادَ فهو مُكْرمهم في الآخرة أيضاً.

ولقد أخبرنا اللّه بحديث أهل الجنة وذكرياتهم في الدنيا، فكان مما قالوه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٨].

نماذج رائعة من المؤمنين الخائفين من عذاب اللّه

عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه:

هذا عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يتمنى كلُّ مؤمن أن يكونَ له بعضُ عمله يقول ـ وهو في مرض موته ـ عن سابقته في الإسلام وعمله الصالح كله: «وددتُ أن هذا كفاف، لا لي ولا عَلَيَّ».

لما طُعِنَ عمر جعل يألم، فقال له ابن عباس وكأنه يُجَزِّعُه: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك، لقد صحبتَ رسولَ اللّه ﷺ وأحسنتَ صُحْبته، ثم فارقتَ وهو عنك راضٍ، ثم صحبتَ أبا بكر فأحسنتَ صُحبته، ثم فارقتَ وهو عنك راضٍ، ثم صحبتَ صَحَبَتُهم فأحسنتَ صُحْبَتَهم، ولئن فارقتَهم لَتُفارِقَنَّهم، وهم عنك راضون.

قال: أما ما ذكرتَ من صحبة رسول اللّه ﷺ ورضاه، إن ذلك مَنٌّ منَ اللّه تعالى عليَّ، وأما ما ذكرتَ من صُحْبة أبي بكر ورضاه، فإنما ذلك مَنٌّ منَ اللّه جلَّ ذكره عَلَيَّ، وأما ما ترى من جَزعي فهو من أجلك، ومن أجل أصحابك، واللّه لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديتُ به من عذاب اللّه تعالى قبل أن أراه».

وقال أيضاً: «لو أن بغلةً عثرتْ بالعراق، لَسُئِلَ عنها عمر بين يدي اللّه».

فهل يغترّ مؤمنٌ بعمله، بعد أنْ يرى هذا من عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، فإذا كان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه الذي أسلم مبكراً، وشهد المشاهدَ كلها مع رسول اللّه ﷺ.. وصحبة ساعة مع رسول اللّه لا يَعْدِلها عملٌ ممن يأتي بعده، وكان وزيرَ النبي ﷺ ومستشاره، ولم يَمُتْ النبي ﷺ حتى بشَّره بالجنة مراراً وتكراراً، ثم كان خيرَ صاحب لأبي بكر الصِّدِّيق، صاحب رسول اللّه ﷺ، وكان خيرَ وزير ومُستشار ومُعين له.

ثم تولَّى أمرَ المسلمين، ففُتِحَتْ في عهده الفتوحُ، ودخلت الأممُ في دين اللّه أفواجاً: الفرس والروم، وشعوب بلاد الشام، ومصر، وغطَّى الإسلامُ الأرضَ كلها

أو كاد. . . ونقل إلى المدينة النبوية كنوز كسرى وقيصر، ومع ذلك مات عمر يوم مات ـ شهيداً حميداً ـ مَديناً بستة وثمانين ألف دينار!! قام ابنه عبد اللّه رضي اللّه عنه بتسديدها عنه، بعد أن جمعها من مال آل الخطاب.

ومع كل هذه الفضائل والمناقب قال عند موته: «أرجو أنْ يكونَ هذا كفافاً لا لي ولا عليَّ . . .واللّه لو أن بغلةً عثرتْ بالعراق لَسُئِلَ عنها عمر بين يدي اللّه عزَّ وجَلَّ، واللّه لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديتُ به من عذاب اللّه قبل أن أراه».

أي: لو كنتُ أملك مثل جبال الأرض ذهباً لافتديتُ به الآن مما أحاذر من عذاب اللّه، فإذا كان عمر رضي اللّه عنه يخشى من عذاب اللّه على هذا النحو، وهو من هو رضي اللّه عنه، فما الظنُّ بأمثالنا ممَّنْ لا تُحصى ذنوبهم، ولا قدمَ لهم في الإسلام.

عمرو بن العاص رضي اللّه عنه:

فقد بكي ابنُ العاص وهو على فراش الموت خائفاً من لقاء اللّه، فبكى طويلاً وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أَمَا بشَّرك رسولُ اللّه ﷺ بكذا؟ أَمَا بشَّركَ رسولُ اللّه ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نَعُد شهادة أنْ لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه.

إني قد كنتُ على أطباق ثلاثة: لقد رأيتني وما أحدٌ أشدُّ بُغضاً لرسول اللّه ﷺ مني، ولا أحب إليّ أنْ أكون قد استمكَنْتُ منه فقتلتُه، فلو مِتُّ على تلك الحال لكنتُ من أهل النار.

فلمّا جعل اللّهُ الإسلامَ في قلبي أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: ابسُطْ يمينك فلأبايعْكَ. فبسط يمينه. قال: فقبضتُ يدي. قال: «ما لكَ يا عمرو؟» قال: قلتُ: أردتُ أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أنْ يُغْفرَ لي، قال: «أما علمتَ أن الإسلامَ يهدمُ ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدمُ ما كان قبلها؟ وأن الحجَّ يهدم ما كان قبله».

وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول اللّه ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنتُ أطيقُ أنْ أملأَ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أنْ أصفَهُ ما أطقتُ لأني لم أكُنْ أملأُ عيني منه، ولو مِتُّ على تلك الحال لرجوتُ أن أكون من أهل الجنة.

ثم حدثتْ أمورٌ لا أدري ما حالي فيها. . فإذ دفنتموني فَشُنُّوا عليَّ التربَ شنّاً، ثم أقيموا حول قبري قدرَ ما تُنحَرُ جَزُورٌ، ويُقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رُسُلَ ربي.

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :

تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما سُئِلَتْ عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

أيّ بني هؤلاء في الجنة، أما السابقُ بالخيرات فمَنْ بَقِي على عهد رسول الله، وشهد له الرسولُ بالجنة، وأما المقتصدُ فمَن اتبع أثره من أصحابه حتى لَحِقَ بهم، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم!!. [رواه الطيالسي].

فالجميع يبكي ذنبه، ويذكر خطيئته، ولا يرى لنفسه فضلاً، ولا لعمله الصالح ذِكْراً، ويقول أحدهم: «لو أعلم أن لي عملاً واحداً مُتقبّلاً لَتمنّيتُ الموت».

obeikandl.com

جولة في النار تُبدِّد الغرور

وأعظم ما يجعل الغرور بالفردوس يتلاشى ويزول، ويجعل التفكير كله ينصبُّ على النجاة من النار أولاً وأخيراً، هو جولة في النار من الداخل، ونظرة إلى الهوة السحيقة، واستبصار لمن يدخلونها ويتساقطون فيها.

ولو وقفتَ مرة ومرة عند وَصْف الحق سبحانه ورسوله ﷺ لهذه النار العظيمة الموجودة الآن، وعاينتَ بالقلب أحوالَ أهلها، علمتَ يقيناً ـ إنْ شاء اللّه ـ أن العزمَ كلَّ العزم يجب أن يكون في الفرار منها، وأن الفرارَ من النار مُقَدَّمٌ على التفكير في دخول الجنة.

ومن المعلوم أن دَفْعَ المفاسد مُقدَّم على جَلْب المصالح، فكيف إذا كانت المصلحة لا يُتوصَّل إليها إلا بدَفْع المفسدة أولاً، فالجنة لا تُنَال إلا بعد النجاة من النار.

فمَنْ حملَ على ظهره كلَّ تلك الذنوب والمعاصي، والتي يستحق بها العذاب ـ لولا رحمة اللّه ـ يصبح من إساءة الأدب، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل اللّهَ الجنة، وهو بَعْدُ لم يتخلَّص من مُوجبات العذاب.

ولم يُرِ الحق سبحانه أحداً من البشر النارَ، نار الآخرة لا يقظة ولا مناماً.. ولكن الحق سبحانه أوقف عباده على هذه النار، ووصفها سبحانه وصفاً مفصلاً لها، وقد صرَّف اللّهُ الوعيدَ لعباده بشأنها.

وقد رأى رسول اللّه ﷺ النار رَأْيَ العين، ثم وصفها وصفاً واضحاً كاملاً، فأصبح مَنْ لم يَرَها بعينه كأنه رآها بعينه بوصْف النبي ﷺ لها. وقد كان الصحابي يجلس إلى النبي ﷺ يُحَدِّث عن الجنة والنار، فكأنه وإياها رَأْيَ العين.

قال حنظلة: يا رسول اللّه، نكون عندك تُذَكرنا بالنار والجنة، حتى كأنَّا وإياها رَأْيَ العَيْن، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواجَ والأولادَ والضيعات نسينا كثيراً، [رواه مسلم].

وكان رسول اللّه ﷺ إذا خطبَ يَصفُ النارَ عَلاَ صوته، واشتدَّ غضبه، واحمرَّ وجهه، كأنه نذيرُ جيش، يقول: «صَبَّحكم ومَسَّاكم».

قال جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه: «كان رسول اللّه ﷺ يقول في خطبته يحمد اللّه ويُثني عليه بما هو أهله، ثم يقول: «مَنْ يَهْده اللّهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضلل فلا هاديَ له. إنَّ أصدقَ الحديث كتابُ اللّه، وأحسنَ الهدي هديُ محمد، وشرَّ الأمور مُحدثاتها، وكلّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، ثم يقول: «بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتين»، وكان إذا ذكر الساعةَ احمرّتْ وَجْنتاهُ وعَلاَ صوته، واشتدَّ غضبُه، كأنه نذيرُ جيش، يقول: «صَبَّحَكُم ومَسَّاكُم». ثم قال: «مَنْ تركَ مالاً فلأهله، ومَنْ تركَ دَيْناً أو ضياعاً فإليَّ أو عليَّ، وأنا أوْلَى بالمؤمنين» [رواه النسائي].

وبعض الصحابيات حَفِظْنَ سورة (قٓ) من فَم الرسول ﷺ من كثرة ما يخطب بها ﷺ في الجمعة. وسورة (قٓ) من سُوَر الوعيد، وقد حملتْ مشاهدَ عظيمة من صور الحشر والنار، وكلام أهل النار وخصومتهم بعضهم بعضاً، مَنْ كان السبب منهم في إدخال الآخر إلى النار. وردَّ اللّهُ على الجميع: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [قٓ: ٢٨].

ثم كلام اللّه للنار التي قد فتحت أبوابها تبتلع كلَّ الأفواج، ممَّنْ يدخلها من أهلها، وهم عدد لا يُحْصَى كثرةً، فإنه يدخل من أولاد آدم من كل ألف تسعةٌ وتسعون وتسعمائة، ويبقى واحدٌ من كل ألف يدخل الجنة.

ولما كانت النارُ دركاتٍ، بعضُها فوق بعضٍ، لا يشاهد المشاهد منها على ظهر أرض المحشر إلا أبوابها، وقرونها وأسوارها، ولهيبها المنبعث منها، وأما هي فبئر واسع سحيق يمتد سُفلاً، حتى إن الحجر ليُلْقَى من على شفير جهنم (الشفير حافة البئر)، فيمكث سبعين عاماً لا يصل إلى قَعْرها.. يصبحون طبقاتٍ بعضُهم فوقَ بعض، وألاً متسع في داخلها لمزيد من الأفواج.

ولما كانت النار كذلك، وقد يُظن أنه من كثرة ما يُلقى فيها من الجن والإنس أخبر سبحانه وتعالى عباده أن هذا التنورَ العظيم، والبئر الواسعة العميقة لن يعجز عن استيعاب كل الداخلين إليها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

اطلاع النبي ﷺ في النار

يُحَدِّثنا رسول اللّه ﷺ عن النار التي رآها رَأْيَ العين، فعلى باب النار وقف، وإلى داخل النار نظر، فقال ﷺ: «اطّلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلِهَا الفقراءَ، واطّلعتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلهَا النساءَ»، [رواه البخاري].

وقال أيضاً ﷺ: «قمتُ على باب الجنة، فكانَ عامَّةَ مَنْ دخلها المساكينُ،

وأصحابُ الجدِّ محبوسُونَ غير أنَّ أصحابَ النار قد أُمِرَ بهم إلى النار، وقمتُ على بابِ النَّار، فإذا عامةُ مَنْ دخلها النساءُ»، [رواه البخاري].

وعن جابر بن عبد اللّه الأنصاري رضي اللّه عنه قال: خسفت الشمسُ على عهد رسول اللّه ﷺ في يوم شديدِ الحرِّ، فصلَّى رسولُ اللّه ﷺ بأصحابه، فأطال القيام حتى جعلوا يخرُّون، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع رأسه فأطال، ثم ركع فأطال الركوع، ثم سجد سجدتين، ثم قام فصنع مثل ذلك، ثم جعل يتقدم، ثم جعل يتأخر، فكانت أربع ركعات، وأربع سجدات.

ثم قال: «إنه عُرِضَ عليَّ كل شيء تُوعَدُونَهُ، فَعُرِضَتْ عليَّ الجنة، حتى لو تناولتُ منها قطفاً أخذتُه، فقصُرَتْ يدي عنه، وعُرِضَتْ عليَّ النارُ فجعلتُ أتأخرُ رهبة أنْ تغشاكم، فرأيتُ امرأة حُمَيْرِيَةً سوداء طويلة، تُعذَّب في هِرَّة لها ربطتها فلم تُطعمها، ولم تُسقها ولم تَدَعْها تأكل من خشاش الأرض، ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قُصْبَهُ في النار».

عبد اللّه بن عمر يرى النار مناماً

وكان عبد اللّه بن عمر ـ رضي اللّه عنهما ـ يتمنى أن يرى رؤيا ليقصَّها على النبي ﷺ، كما كان يفعل كثيرٌ من أصحاب النبي ﷺ، فقال: رأيت في المنام أنه جاءني مَلَكَان، في يد كل واحد منهما مِقْمَعَةٌ من حديد، قالوا: لن ترع. نِعْمَ الرجلُ أنت، لو كنتَ تُكْثِرُ الصلاةَ من الليل!!.

فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذا هي مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البئر، لها قرونٌ كقرون البئر، بين كل قرنين مَلَكٌ بيده مقمعة من حديد، وإذا فيها رجال مُعَلَّقون بالسلاسل رؤوسهم أسفلهم، وعرفتُ رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين، فقصصتُها على حفصة، فقصَّتْها حفصةُ على رسول اللّه ﷺ، فقال ﷺ: «إن عبدَ اللّه رجلٌ صالح، لو كان يصلي من الليل».

وَصْفُ النار في القرآن والسُنَّة

مَشَاهِد النار يُصَوِّرها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لنا بالقرآن البليغ المعجز، ومشاهد أُخَر ينقلها النبي ﷺ لنا ويُصَوِّرها بجوامع الكلم، فإذا كلُّ مشهد يقطع القلب، لو كان صاحبه يعي ويسمع.

والنار واحدة من آيات الله الكبرى.. قال تعالى:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٢ـ ٣٦].

وقال تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فتذكّر النار من الإيمان، إنها لحقٌّ، وهي موجودة الآن، وقد رآها الصادقون رَأْيَ العَيْن، وحدَّثوا بما شاهدوا فيها، وأعظمُ مَنْ رآها وحدَّثَ بما فيها هو رسولنا الصادق الأمين، محمد بن عبد الله الرسول النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أخبر ﷺ أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عندما خلق الجنة نادى جبريل، فقال له: «اذهبْ فانظرْ إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، وإلى ما أعدَّ اللّهُ لأهلها فيها، فرجع فقال: وعِزَّتِكَ لا يسمعُ بها أحدٌ إلاَّ دخلها، فأمر بالجنة فَحُفَّتْ بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها قال: فنظر إليها، فلما رجع فقال: وعزَّتكَ، لقد خشيتُ أنْ لا يدخلها أحدٌ».

قال: ثم أرسله إلى النار. قال: اذهبْ فانظرْ إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها. قال: فنظرَ إليها، فإذا هي يركبُ بعضُها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزَّتِكَ لا يدخلها أحدٌ سمع بها. فأُمِرَ بها فَحُفَّتْ بالشهوات. ثم قال: اذهبْ فانظرْ إلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فذهب فنظر فيها، فرجع فقال: وعزَّتِكَ، لقد خشيتُ أن لا ينجو منها أحدٌ إلا دخلها»، [رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي].

وأخبر ﷺ أن النارَ اشتكتْ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فقالت: «يا رب، أكلَ

بعضي بعضاً، فجعل لها نَفَسَيْنِ، نَفَساً في الشتاء، ونَفَساً في الصيف، فشدة ما تجدُونَ من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون من الحرّ من سَمُومِها»، [رواه ابن ماجه].

وأخبر ﷺ أنه «إذا جاء رمضانُ فُتِّحَتْ أبوابُ الجنة، وغُلِّقَتْ أبوابُ النيران، وصُفِّدَتْ الشياطينُ»، [متفق عليه].

وهذه النار لا تَفْنى ولا تَبيدُ، بل هي باقيةٌ وخالدةٌ خُلُوداً، لا نهايةَ له، ولا انقطاعَ له، وأهلُها الذين هم أهلُها باقون فيها مُعذَّبون عذاباً لا ينقطع أبداً، ولا يفترُ عنهم مطلقاً ـ عياذاً بالله منها ومن أحوال أهلها.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦٠، ١٦١].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ـ ١٣].

أي: لا يموتُ موتاً يستريحُ فيه من العذاب، ولا يحيا حياة نافعة صالحة، بل عذاب دائم يصبح الموتُ معه أكبرَ الأماني، ولكنه لا يكون. قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال تعالى لأهلها: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال ﷺ: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، جِيءَ بالموت، حتى يُجعلَ بين الجنة والنار، ثم يُذبَحُ، ثم ينادي مُنَادٍ: يا أهلَ الجنةِ خلودٌ فلا موت.. يا أهلَ النار خلودٌ فلا موت، فيزداد أهلُ الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهلُ النار حزناً إلى حزنهم»، [رواه البخاري].

سِعَةُ النَّارِ

هذه النار المخلوقة الموجودة الآن لا يبلغ العقلُ معرفةَ اتّساعها، فإن الشمس

والقمر والنجوم أحجارٌ صغيرة في وسطها. . إنها مِحْرَقَةٌ هائلة تُلْقَى فيها النجومُ والشُّموسُ، كما تُلْقَى الأحجارُ الصغيرة في البئر العظيمة، وتتضخَّم أجسادُ أهلها وأصحابها، ممنْ كتبَ اللّهُ عليهم الخلودَ فيها.

حتى إنه ليكونُ ضِرْسُ أحدهم كجبل أُحُد، وما بين مَنْكِبَيْه مسيرة ثلاثة أيام، وسُمْك جلده مسيرةُ ثلاثة أيام، فيكون جثمان الواحد من أهل النار كأعظم جبل من جبال الدنيا، قال النبي ﷺ: «ضِرْسُ الكافر أو نَابُ الكافر مثل أُحُد، وغِلَظَ جلده مسيرةُ ثلاثة أيام»، [رواه مسلم].

وفي البخاري قال ﷺ: «ما بين مَنْكِبَيْ الكافر مسيرةُ ثلاثة أيام للراكب المسرع». وفي الترمذي قال ﷺ: «إن مجلسَ الكافر من جهنم كما بين مكة والمدينة».

ومع أنه يدخل النارَ من أولادَ آدم من كل ألف تسعة وتسعون وتسعمائة، ولا يدخل الجنةَ من الألف إلا واحدٌ فقط، وثَمَّ من شياطين الجن مثلُ أعداد كفار بني آدم أو يزيدون، وكلُّهم يدخلون النار على الحال التي وصفَ اللّهُ سبحانه وتعالى، وكلُّ هؤلاء لا يملأون النار، ولا تضيق بهم:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

هذه النار التي بهذا الاتساع، خُلِقَتْ على شكل البئر المطوية، قد لا يبدو للناظر إليها وهو خارجٌ عنها من فوقها إلا سُورُها وسُرادقها المحيط بها، وأبوابها السبعة المقامة في سُورها، أو المنصوبة على دركاتها، وأما هي فتذهب عُمْقاً إلى قَعْر لا قرارَ له، وإذا أُلْقِي الحجرُ العظيمُ من شفيرها يظلُّ يهوي سبعين عاماً لا يبلغ قَعْرها.

وفي هذه المحرقة الهائلة جبالٌ، فيها من الكهوف والمغارات والوديان والشعاب تهاويل لا يبلغ العقل عدَّها ولا حَصْرها، وتجري في جبالها وسُهُولها وقيعانها أنهارُ القَيْح والصديد، وما يسيل من أجساد أهل النار وما ينفجر من بطونهم وأمعائهم.

قال الحق سبحانه: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

ومن هذه الجبال والوديان تتفجَّر أنهارٌ من ماء كَدُرْدِيّ الزيت مُنْتِنٍ بلغ غايته وحَدَّه في الحرارة، إذا قرَّبه المعذَّب من وجهه شَوَى وجهه، وتساقط جلدُ وجهه فيه ـ عياذاً باللّه من سخطه وعقابه.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

والمُهْل: هو الرَّصاص المذاب، أو كُلُّ معدن مُذَاب.

في النار: كُلُّ أسباب الموت ولا موت!!

هذه النار العظيمة ـ المخلوقة الآن ـ مَن دخلها من أهلها الذين هم أهلها ـ عياذاً بالله ـ فإنه يُبشَّر عند الدخول بالخلود الذي لا انقطاعَ له، قبل أنْ يُلْقَى فيها: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢].

ويجتمع له فيها كلُّ أسباب الموت، ولكنه لا يموتُ بسبب من أسبابها، ولا باجتماع كل أسبابها: ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٧].

فإن حَرَّ نارها يقتل ويُميتُ في لحظة واحدة، ولكن اللّهَ كتب على أهلها أنْ يذوقوه ولا يموتوا، وكذلك ماؤها الذي يُقطِّع الأمعاء يقتل لو لم يكتب اللّهُ البقاءَ السرمديَّ لأهلها، وكذلك لدغ حياتها وأكل زقومها، وقَرْع ملائكتها، وضربهم أهلها بمقامع من حديد، لو ضُربَ بها أعظم جبال الأرض ضربةً واحدةً لَدُكَّ لساعته، وأصبح كثيباً مهيلاً.

ثم الغَمّ الشديد الذي يُفجّر القلب، واليأس الشديد الذي يقطع الأمل، وكل هذه أحوالٌ قاتلة مميتة، ولكن المعذَّب بها من أهل النار عياذاً بالله لا يموتُ بواحد منها، ولا باجتماعها جميعاً، وهي مجتمعة على كلّ واحد من أهل النار.

﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٧].

عذابُ النَّارِ في ازديادٍ أبداً

ويستمر هذا التسعير والتصعيد في العذاب أبداً، ولا أملَ في يوم من الراحة، ولا ساعة من الهدوء، ولا فُتُور للعذاب: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٤٩ ـ ٥١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥]. أي: مُتَحيرون يائسون مُنْقَطِعُو الرجاء والأمل في أيّ صورة من صور الرحمة بهم. إن تصوُّرَ هذه الحال، وتخيُّل أنْ يكونَ الواحدُ منَّا في هذه المآل ـ عياذاً بالله ـ أعظمُ واعظ وأكبرُ زاجر.

طعامُ أهلِ النَّارِ عَذابٌ وشَرابُهُمْ عَذابٌ

أهلُ النار الذين هم أهلها المخلَّدون فيها ـ عياذاً بالله ـ يأكلون فيها

ويشربون، ولكنهم يُعَذَّبون بالطعام والشراب عذاباً، كعذاب النار أو أشدّ، ومع أنهم يُعذَّبُونَ بالطعام الذي يأكلونه، وبالشراب الذي يشربونه، إلا أن ضرورة الجوع والعطش تُلجئهُم إلى هذا الأكل والشراب، وهو نوعٌ من العذاب، بل هو العذاب.

فالمعذَّب في النار يجوع جوعاً شديداً، وتُلجئهُ ضرورته إلى الأكل من شجر الزقوم.. هذه الشجرة تخرج في أصل النار في عمق البئر، وقَعْر الجحيم، وتخرج أغصانُها وثمارها في صورة مرعبة كريهة بشعة.

وما ظنُّك بثمار شجر ينبتُ في النار، وتُغذيه النار ويجري في عروقه الحميم، ووصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ شجرة الزقوم، فقال جَلَّ وعَلاَ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۞ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۞ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤ـ ٦٨].

وقال جَلَّ وعَلاَ أيضاً: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۞ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۞ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۞ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۞ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۞ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ـ ٥٦].

والمعنى أن ضرورة الجوع تُلجىء المعذَّب من أهل النار إلى الأكل من هذه الشجرة الخبيثة الملعونة التي تخرج في أصل النار، وتُثمر ثماراً من نار، فإذا احترق جوفُ المعذَّب من هذا الطعام الخبيث، وأراد أن يُطفىءَ الحرارة المشتعلة في بطنه، ويطفىء العطش الهائل الذي يُحِسُّ به، ألجأتهُ هذه الضرورة إلى ماء خبيث، قد بلغ غايته في الحرارة فيشربه ليُطفىءَ ناراً، فلا يزيده هذا الماءُ المغلي إلا اشتعالاً.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۞ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥].

ومع أن الماء كدردي الزيت، خبيثٌ مُنتن الرائحة، قد بلغ غايته في الغليان، إلا أن المعذَّب يشرب منه شُرْباً ذريعاً شربَ الناقة الهيماء التي يصيبها داءٌ في جوفها، فتشعر بلهيب في بطنها فتَعُبُّ من الماء، ولا ترتوي، كما قال الشاعر يصف حاله في الحب:

فَأَصْبَحْتُ كَالهيمَاءِ لاَ المَاءُ مُبرد ظمَاهَا وَلاَ يَقْضِي عَلَيْهَا هُيَامُها

إذا شرب هؤلاء المعذَّبون من الماء الذي لا ينفعهم، بل يضرهم حتى تتقطّع أمعاؤهم، فَرُّوا منه إلى النار فكان بِئْسَ الفرارُ، ثم تُلجئهم ضرورةُ العطش مرةً ثانية لذلك الماء الخبيث، وهكذا فراراً من شرٍّ لما هو شَرٌّ منه، ثم عَوْدٌ إلى الأول.

قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

obeikandl.com

والمعنى: يفرُّون منها إلى الحميم، ويفرُّونَ من الحميم إليها. ومعنى آنٍ: أي بلغ حينه أي غاية حَدِّهِ في الحرارة والغليان.

ألوانٌ أُخْرَى من الأشْرِبَةِ الخَبِيثَةِ

وليس هذا وحده ما يُعذَّب به أهلُ النار من الطعام والشراب، بل إن لهم من ألوان الأشربة الخبيثة النتنة المهلكة أشكالاً وألواناً. قال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨].

فالحميم هو الماء الحار والغسّاق شراب خبيث لو ألقيتْ قطرةٌ واحدة منه على بحار الأرض لأفسدتْ على أهل الأرض كلهم معايشهم. قال ﷺ: «لو أن قطرةً من الزَّقُّوم قُطِرَتْ لأفسدتْ على أهل الأرض عَيْشَهم، فكيف مَنْ ليس لهم طعام إلا الزَّقُّوم»، [رواه أحمد].

والأزواج الأخرى أشكالٌ من جنس هذا، عياذاً باللّه من سخطه وعقابه..

وكل ذلك حَقُّ اليقين.

العَذَابُ النَّفْسي أشَدُّ مِنَ العَذَابِ الجِسْمَاني

ليس عذاب أهل النار عذاباً جسدياً فقط، يُعذَّبون فيه بالنار التي تُنضج جلودهمُ ثم ينبت في الحال غيرها، وتحرق صدورهم حتى يبلغَ قلوبهم. قال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧].

أي: التي يدخل لهيبها إلى الفؤاد، والتي تُوضع أحجارها المحماة على حلمة ثدي أحدهم، حتى يخرج الحجر من ظهره، ويُوضَع فوق ظهره حتى يخرجَ من صدره.

قال ﷺ: «بَشِّر الكَنَّازين برَضْف يُحْمَى عليه في نار جهنم، فيُوضع على حلمة ثدي أحدهم، حتى يخرج من نَاغِض كتفيه، ويُوضع على ناغض كتفيه حتى يخرجَ من حَلَمة ثدييه، يتزلزل»، [رواه مسلم].

ومن العذاب الجسماني في شربهم الحميم، وأكلهم الزَّقُّوم، ولَدْغ حيات كالبغال، تنطلق من كهوف في النار، ويسري سُمُّها في أجسامهم يعمل عمل النار أو أشدّ.. ليس هذا هو عذاب أهل النار فقط، بل إن عذابهم النفسي مثل ذلك وأشرُّ. فمن ذلك:

١ ـ التقريع الدائم من خَزَنة النار، كقولهم لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

opelkandil.com

٢ ـ وكذلك إهمال ملائكة النار لاستغاثاتهم وصراخهم، أو أن يَرِقُّوا لحالهم.. بل مضاعفة العذاب لهم كلما استغاثوا. قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وعندما يبلغ بأهل النار كَرْبُهم وغَمُّهم غايته يسألون مالكاً خازن النار، وهو أشدُّ ملائكة العذاب شدةً وغلظةً: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].. فَيَرُد عليهم بعد ألف سنة، وهو يوم واحد من أيام الآخرة: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨].

وإذا بلغ منهم الغَمُّ مداه عادوا بالمقْت على أنفسهم، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وهذا اعتراف منهم بالذنب، أنهم لم يكونوا ذوي آذان تسمع النداء ـ نداء الحق ـ في الدنيا، ولا ذوي عقول تَعي دعوة الحقّ التي جاءتهم على ألسنة الرسل.

وإذا علموا السبب الحقَّ في ضلالهم، وعادوا بالملامة على أنفسهم، وندموا حيث لا تنفعُ الندامةُ، وتحسَّروا حيث لا تزيدهم الحسرةُ إلا مثلها، ومقتوا أنفسهم نُودُوا بما يصيبهم بغَمٍّ وكَرْب أعظم من الذي نالوه كله، وهو أن سخطَ الربِّ ومَقته لهم أعظمُ من مَقْتِهم أنفسَهم.

قـال تـعـالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وسبب مَقْتِهم أنفسهم أن الإيمان قد كان في متناول أيديهم لو تناولوه، وأما الآن فالإيمان بعيد ولا يُقبل منهم ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

كان المطلوب منهم: إيمانٌ بالقلب بوحدانية اللّه، وشهادة باللسان، وعمل صالح سهل ميسور يستعذبه المؤمن في الدنيا، ويُمتَّع به في الدنيا قبل الآخرة، فالصائم يفرح في الدنيا بصومه، والمصلّي يشعر بالرضا بصلاته، والمتصدِّق يسكبُ اللّهُ في قلبه من معاني الخير والفضل ما هو خيرٌ من إمساكه ما تصدَّق به، والحَاجّ يستعذب المشقةَ في سبيل اللّه، وذاكر اللّه يقول: «إننا واللّه في نعمة لو علمها الملوكُ وأبناءُ الملوك لَجَالَدُونا عليها بالسيوف».

والراضي بالحلال في المأكل والمشرب والمنكح، يشعر بسعادة ورضىً، لا

يشعر بها مَنْ يعيش فيما حرَّم الله عليه من المآكل والمناكح والمشارب. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

٣ ـ ومن العذاب النفسي لأهل النار قمعُهم بالمطارق، وتأنيبهم مع هذا العذاب المذلّ بالتبكيت، وصنوف الإذلال كقوْل الملائكة لهم بعد صَبِّ العذاب فوقهم: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقولهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٠]، وقولهم: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٥].

٤ ـ ومن ذلك أن يكون العذابُ في نفسه مُهيناً كالسَّحْب على الوجوه في النار: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨]، والأخذ بالنواصي والأقدام، ثم الإلقاء في النار: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن: ٤١].

أو الدفع الشديد إلى العذاب. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، والدّعّ: هو الدَّفْع العنيف بشدة وقوة وعنف.

وقد سَمَّى اللّهُ عذابَ الآخرة بالعذاب المهين، وذلك أن مَنْ يَصْلاهُ يُهانُ أعظمَ إهانة وأكبرها. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

٥ ـ وأعظم أنواع الإهانات التي يتلقَّاها أهلُ النار ـ عياذاً بالله ـ هي حُلُول غضب الله وسخطه عليهم، والتخلّي عنهم، ونسيانه ـ سبحانه وتعالى ـ لهم ومَقْتهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

٦ ـ ومن ذلك الفضيحة بالذنب على رؤوس الأشهاد والتشهير بهم على الملأ، بل على رءوس الناس جميعاً منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]. ومعنى تُبْلَى تُهتك، ويظهر ما كان في الخفاء مما أَسَرَّه أصحابُ الذنوب والمعاصي.

وقال تعالى بعد أنْ صوَّر مصارعَ الهالكين من قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب لوط، وقوم شعيب:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣].

أي: يشهده الناس جميعاً ويحضرونه.. فمن عذَّبه اللّه في هذا اليوم، وأظهر فضائحه على الملأ، وشهّر به أمام جميع الخلائق، فقد أهانه أبلغ الإهانة، وأذلّه غايةَ الإذلال، قال تعالى عن دعاء المؤمنين ربهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ * يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧، ٨٨].

وقال ﷺ: «لكل غادر لواءٌ عند إسته يوم القيامة له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أميرِ عامة»، [رواه مسلم].

أعظمُ عَذَابِ النَّارِ هُوَ الخُلُود

أهل النار قسمان: مخلدون خلوداً لا انقطاع له، ولا موتَ معه، وهم درجاتٌ فيها، أعلاهم مَنْ يُوضَع في جُبٍّ في أسفل النار، لو فُتِحَ هذا الجُبُّ فإن جهنمَ نفسها تستغيثُ باللّه من حَرِّه!! وأدناهم منزلةً وأقلّهم عذاباً مَنْ يُوضَع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغُه!! وهذا وإنْ كان أهونَ أهل النار عذاباً إلا أنه يظن ويرى نفسه أنه أشدُّ الناس عذاباً.

وتصوُّر الخلود في العذاب أمر يفوق التصوُّر!! ويقطّع القلب!! فإن تصوُّر أنْ يكون الإنسانُ في سجن ما، ولو كان كسجون الدنيا يعيش فيه إلى ما لا نهاية، ولا يخرج منه أبداً بالموت ولا بغيره، بل يبقى فيه بقاءً سرمدياً.. هذا التصوُّر كَافٍ في موت الإنسان غَمّاً وكَمَداً وحُزناً.. فكيف لو كان هذا السجن: جدرانه وأبوابه، وطعامه، وشرابه من النار!!؟.

فكيف إذا كان هذا السجن بئراً، إذا أُلقِيَ فيه هذا المعذَّب، هوى على أُمِّ رأسه سبعين سنة لا يصل إلى قرار؟! فكيف إذا كانت النارُ التي نعهدها في هذه الدنيا جزءاً من سبعين جزءاً من نار الآخرة؟ كل جزء من التسعة والستين فيه مثل حَرِّ نار الدنيا؟!.

إن تصوُّر الخلود في هذا العذاب شيءٌ يفوق الوصف.. والعجب أن المصدِّقَ به لا يَفِرُّ منه، وقد قال رسول اللّه ﷺ: «عجبتُ للنار.. كيف نام هاربها؟».

وإلا فمَنْ عرف هذه النارَ وآمن بها، وأنها موجودة حاضرة الآن، وإذا مات في أية لحظة فقد يدخلها، كيف له أن ينامَ وهي في الانتظار!! ولكن إنها الغفلةُ والتسويفُ والانشغالُ بما حُفَّتْ به النارُ من الشهوات.

مَنْ هُمْ عُصَاةُ المُؤْمنينَ؟

المؤمن الذي يموت على الإيمان إذا كان قد ارتكبَ في حياته معصية دون الكفر والشرك المخْرج من الملّة فإن له حالتين: إما أن يكون قد تاب من معصيته في حياته، وإما أن يكون مات غير تائب منها. . . فإن كان قد تابَ منها في حياته توبةً نَصُوحاً قَبلها اللّه منه، فإنه يعود كَمَن لا ذنبَ له، فلا يُطَالَبُ بمعصيته هذه في الآخرة.

وأما إذا كان قد مات غير تائب من معصيته، فإن لهذا أحوالاً:

١ ـ فمنها، أن يتجاوز اللّه عنه إحساناً من اللّه وفضلاً ومَنّاً. كما جاء في حديث ابن عمر رضي اللّه عنهما في النَّجْوَى «أن اللّه سبحانه وتعالى يُدْني المؤمن، فيضع عليه كَنَفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أيْ رب، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتابَ حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذَبُوا ربّهم، ألا لعنةُ اللّه على الظالمين»، [رواه البخاري]. . هذا في موقف القيامة.

٢ ـ ومنها: أن تكونَ له حسناتٌ كثيرةٌ تربو على هذه السيئات فيتجاوز اللّه عنه ويسامحه في سيئاته لزيادة الخير الذي عنده. قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [القارعة: ٦، ٧].

٣ ـ وإما أنْ يشاءَ اللّهُ ـ سبحانه وتعالى ـ عقوبته. وهذه العقوبة إما أن يُعَذّب بها في القبر، أو في الموقف (يوم القيامة)، أو في نار جهنم، ثم تتداركه بعد رحمة اللّه، فينصرف إلى الجنة ما دام قد مات على التوحيد والإيمان، ولم يكن من أهل الكفر الناقل عن ملّة الإسلام.

وهؤلاء المؤمنون العصاة هم الذين يموتون يوم يموتون، وقد فعلوا معاصي لم يتوبوا منها، أو لم تُقبَلْ توبتُهم فيها، أو ماتوا يوم ماتوا عليها ـ عياذاً باللّه من سخطه ـ كَمَنْ مات وهو يزني أو وهو يسرق، أو وهو فَارٌّ من الزحف، أو وهو يأكل الربا، أو ماتوا وهم يعملون ما دون ذلك من المعاصي والسيئات. ثم شاء اللّه جلّ وعلا أنْ يُعذّبهم بمعاصيهم في القبر أو عرصات يوم القيامة في يوم مقداره خمسون ألف سنة من أيام الدنيا، أو في النار بعد ذلك.

الذَّنْبُ وَالوَعيدُ مُتَحَقِّقَان، التَّوبَةُ وَالمغْفرَةُ مَظْنُونَتَانِ

فوقوعُ الذنب من العبد متحقق، سواءٌ علمَ به العبدُ أو لم يعلمْ به، أو عَدَّه

ذنباً، أو لم يَعدّه ذنباً، وسواء تذكّره أو نَسيَهُ، فكلُّ ذنب وقع في الأرض فهو مكتوب مسطور ما لم يَمْحُهُ اللّه بالتوبة.

وأيضاً، فإن العقوبة التي رتَّبها اللّه على الذنب فهي كذلك متحققة ما لم يغفر اللّه لفاعل الذنب، ولما كانت الذنوبُ التي فعلتها أمراً مقطوعاً به، فقد كُتبَ وسُجِّلَ لا محالةَ في ذلك، والوعيد على الذنب مقطوعٌ به، فإن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقول إلا حقاً، ولا يتوعَّد إلا صدقاً إلا أنْ يتوبَ العبدُ توبةً نَصُوحاً فيغفر اللّهُ له، ولكن قبول التوبة يظل مظنوناً. فما يدريني ـ ويدري غيري ـ أن اللّه قد قَبِلَ عذري، وأقالَ عَثْرتي، وغفر ذنبي.

إنني أحسن الظن باللّه، ولكني أُسِيءُ الظنَّ في نفسي، فهل استكملتُ أركان التوبة؟ فأقلعتُ عن الذنب إقلاعَ مَنْ لا ينوي مراجعته قط، وهل ندمتُ على فعل كل ذنبٍ أذنبتُه ندمَ مَنْ يقطع بالعقوبة عليه إنْ لم يغفر اللّه؟

وهل عزمت على عدم العودة ما حييت؟ وهل رددتُ حقوق الآدميين لهم؟ وتحللتُ منهم مما لا أستطيع رَدَّهُ؟ كيف وعندي ما لا يعلمه إلا اللّه من الذنوب التي هي حَقٌّ خالصٌ للّه، وجبال أخرى من الذُّنوب التي تتعلق بحقوق الآدميين!!؟.

وأقول: اللّهم أنت رَبّي، وأنا عبدُكَ، وأنا على عَهْدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ، وأبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي فاغفرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلاَّ أنت.

فطريق المؤمن إلى الجنة طويلٌ شاقٌّ عسير، فالطريق محفوفٌ بالمخاطر، ومفاوز عظيمة، وعقبات وعقبات، ومن عصاة المؤمنين من يُقْتَطَعُ دون الجنة، فيمكثُ في النار ما شاء اللّه أن يمكثَ، وأنه لا يدخلُ الجنةَ بعد ذلك إلا محترقاً، ثم ينبت له لحم جديد.

وأما طريق الكفار إلى النار، فهو قصير جداً.. القبر أول منازله. قال تعالى عن قوم نوح: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح: ٢٥]، بفاء التعقيب.

وقال تعالى في قوم فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، ثم البعث، فالحشر، فالنار.. وأما أهلُ الإيمان فإن طريقهم إلى الجنة طويل، ولا يدخلونها إلا بعد أن يدخلَ أهلُ النار النارَ.

ولنبدأ رحلة الإيمان من أولها..

الموْتُ آتٍ لا مَحَالَةَ

من هذه اللحظة إلى الموت قَدْرٌ من العمر قد يكون لحظةً وقد يستمر سنوات، وأعمارُ أمة محمد عامَّتُهم بين الستين والسبعين، ولا يجاوز هذا العمر إلا النادر. ومن هذه اللحظة إلى لحظة الوداع لا يدري أحدٌ ما تكونُ الخاتمة.

قال ﷺ: «إن الرجلَ لَيعملُ بعملِ أهل الجنة، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجلَ ليعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

وقال أيضاً ﷺ: «إن الرجل ليعملُ بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجلَ ليعملُ بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» [متفق عليه].

اللّهم إني أسألُك بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلَى أنْ تُثبِّتني على الإيمان حتى ألقاكَ، وأنْ تجعلَ خَيْرَ أيامي آخرها، وأحسن عملي خواتيمه. اللّهُمَّ اختمْ لي ولإخواني المؤمنين بخاتمة أهل السعادة، ولا تُزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا يا ربَّ العالمين.

وسيظل المؤمنُ خائفاً من تقلُّب قلبه، وهل سُمِّيَ القلبُ قَلباً إلا لتقلُّبه؟ ولقد كان رسولُ اللّه ﷺ الجبلَ الراسخَ في الإيمان، خيرَ عباد اللّه على الإطلاق. يقول: «يا مُقَلِّبَ القلوب.. ثَبِّتْ قلبي على دينك».

وعن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: كان أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: «لا، وَمُقَلِّبِ القلوبِ» [رواه البخاري].

فما يُدريني أنا أو غيري، كيف تكون لحظة النهاية؟ هذا ونحن نعيش العصر الذي قال فيه الرسول ﷺ: «بادروا بالأعمال فِتَناً كقِطَع الليل المظلم يُمْسي المرءُ مؤمناً، ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويُمْسي كافراً، يبيع أحدُهُم دينه بعَرَض من الدنيا قليل» [رواه أحمد ومسلم والترمذي].

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

هل يُعاني المؤمنُ سكراتِ الموت؟

الموت لحظة رهيبة، والكلُّ يخافه ويكرهه، المؤمن والكافر.. ولا بُدَّ لكل أحد منه، ولا فرارَ عنه، ونَزْعُ الروح نَزْعٌ، وآلامٌ، وكل إنسان يذوقه مؤمناً، أو كافراً.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

والمؤمن لا يناله من ألم الموت إلا القليل، وأما الكافرُ فإن نزعَ الروح هو أولُ العذاب له.. فقد كانت عائشة رضي اللّه عنها تقول: «إن من نِعَم اللّه عليَّ أن رسول اللّه ﷺ تُوفِّي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْري ونَحْري، وأن اللّه جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن (أخوها) وبيده السِّواكُ، وأنا مُسْنِدَةٌ رسولَ اللّه ﷺ فرأيته ينظر إليه، عرفتُ أنه يحبُّ السواكَ فقلتُ: آخذه لك؟ فأشار برأسه أنْ نعم، فتناولتُهُ فاشتدَّ عليه، وقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لكَ، فأشار برأسه أنْ نعم، فلَيَّنْتُهُ، وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يُدْخلُ يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: لا إلهَ إلا اللّهُ، إن للموت سكرات!!.

ثم نصبَ يده، فجعل يقول: في الرفيق الأعلى حتى قُبِضَ ومالتْ يده ﷺ» [رواه البخاري].

اللحَظاتُ الأَخيرَةُ في حَيَاةِ المؤْمِنِ وَالكَافِرِ

فالمؤمن يُبَشَّر بالجنة، والكافر يُبَشَّر بالنار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ (أي عند الموت) ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

أما الكافر فإنه يتلقَّى الصَّفعات عند الموت.. قال سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧].

ويُبَشَّر بالنار ويُقرَّع عند الموت. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وقد أوضح النبي ﷺ هذه اللحظات الأخيرة في حياة المؤمن والكافر، فقال ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزلَ إليه من السماء ملائكةٌ بيضُ الوُجُوه كأن وجوهَهُم الشمسُ، معهم كفنٌ من أكْفَان الجنة، وحَنُوطٌ من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر.

ثم يجيءُ مَلَكُ الموْت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، أخرجي إلى مغفرة من اللّه ورضوان. فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فِيّ

السِّقَاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعُوهَا في يده طَرْفَةَ عَيْن حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نَفْحَة مسك وُجِدَتْ على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟

فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التي كانوا يُسَمُّونه بها في الدنيا ـ حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتح له، فيُشَيِّعُه من كل سماء مُقَرَّبُوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهيَ إلى السماء السابعة. فيقول اللّه عزّ جلّ: اكتبوا كتابَ عبدي في علّيين، وأعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتُهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارة أخرى.

فَتُعَاد روحه فيأتيه مَلَكَان، فيُجْلِسَانه، فيقولان له: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: ربي اللّه. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعثَ فيكم؟ فيقول: هو رسول اللّه. فيقولان له: وما عِلْمك؟ فيقول: قرأتُ كتاب اللّه، فآمنتُ به وصدقتُ.

فَيُنَادي مُنَادٍ من السماء أنْ صدقَ عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويُفْسَح له في قبره مَدَّ البصر. ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجه حَسَنُ الثياب، طيب الريح، فيقول: أبْشِرْ بالذي يسُرُّك، هذا يومُك الذي كنت تُوعَد، فيقول له: مَنْ أنت؟ فوجهُكَ الوجه الذي يجيءُ بالخير.

فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رَبِّ أَقِمْ الساعةَ.. رَبِّ أقِمْ الساعة.. حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزلَ إليه من السماء ملائكةٌ سُودُ الوُجُوه، منهم المُسُوح، فيجلسون منه مَدَّ البصر، ثم يجيءُ مَلَكُ الموت حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سَخَط من اللّه وغضب، فتتفرّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها.

فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طَرْفَةَ عَيْن، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجِدَتْ على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرُّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا فيستفتح له، فلا يُفْتح له، ثم قرأ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقول اللّه عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى، فتُطرح روحه طَرْحاً، فتُعاد روحه في جسده، ويأتيه مَلكَان، فيُجلسانه فيقولان له: مَنْ ربك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري.

فينادي مُنَادٍ من السماء: أنْ كذبَ عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حَرِّها وسَمُومِها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلفَ أضلاعه، ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه قبيحُ الثياب، مُنتن الريح، فيقول: أبشرْ بالذي يسُوؤك، هذا يومك الذي كنت تُوعَدُ، فيقول: مَنْ أنت؟ فوجهُكَ يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملُك الخبيث، فيقول: رَبِّ لا تُقِمْ الساعةَ»، [أخرجه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم وصححه شيخنا الألباني].

عصاة المؤمنين

وعصاة المؤمنين قد يُعذَّبُ بعضُهُم في قبره، في صغير من الذنوب وكبير: فمنهم مَنْ يُعَذَّب بالنميمة، ومنهم مَنْ يُعذَّب لأنه لم يكُنْ يستنزهُ من بوله، ومنهم مَنْ يُعذَّبُ في دَيْن كان عليه لم يُؤدِّه.

وقال جابر بن عبد اللّه الأنصاري: تُوفِّيَ رجلٌ، فغسَّلْناهُ وحنَّطْناه، وكفنَّاه، ثم أتينا به رسول اللّه ﷺ يُصلي عليه، فقلنا: تصلي عليه، فخطا خُطى، ثم قال: أعليه دَيْنٌ؟ قلنا: ديناران. فانصرف.. فتحمَّلهما أبو قتادة فأتيناه. فقال أبو قتادة: الديناران عليَّ. فقال رسول اللّه ﷺ: أَحَقَّ الغريم وبرىء منهما الميت؟ قال: نعم. فصلى عليه، ثم قال بعد ذلك بيوم: ما فعل الديناران؟! فقال أبو قتادة: إنما مات أمس. فعاد إليه من الغد، فقال: قد قضيتهما. فقال رسول اللّه ﷺ: «الآن بردتْ عليه جلدُه».

وقوله ﷺ: «الآن بردت عليه جلده»، يدلُّ على أنه كان يُعذَّب في القبر، إلى أنْ أُدِّي ما عليه من الدَّيْن، ومنهم مَنْ مات شهيداً مع النبي ﷺ، ولما كان قد غَلَّ بُرْدَةً لا تساوي أربعة دراهم، فقد دخل العذاب بعد الموت مباشرة.

فعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ يوم خيبر، فلم نغنم ذهباً ولا فضة، إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدى رجل من بني الضبيب يقال له رفاعة بن زيد لرسول اللّه ﷺ غلاماً يقال له مدعم، فوجه رسول اللّه ﷺ إلى وادي القرى، حتى إذا كان بوادي القرى بينما مدعم يحطُّ رَحْلاً لرسول اللّه ﷺ إذا سهمٌ حائرٌ فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشملةَ التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تُصبها المقاسم لَتَشْتَعِلُ عليه ناراً».

فلما سمع ذلك الناسُ جاء رجل بِشِرَاك أو شراكين إلى النبي ﷺ، فقال ﷺ: «شراك من نار، أو شراكان من نار».

فإنَّ أَخْذَ شراكٍ من الغنائم هو من صغار الذنوب، لأن الشراكَ لا يساوي شيئاً ولا يُشَاحُ فيه، ومَنْ فقده لا يسأل عنه، ومع ذلك لَمَّا كان غُلولاً لم يُتَسامح فيه.

وهذا من أبين الأدلة على أن المؤمنَ قد يُعذَّبُ في قبره في صغائر من الذنوب.

القَبْرُ.. بغَيْرِ عَذابٍ عَذابٌ

والقبر وإنْ كان بغير عذاب فهو عذاب، فهو منزل رهيب. إنه الوحدة والوَحْشَة والظُلْمة والضيق، قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القبورَ ممتلئةٌ على أهلها ظُلمة، وإنَّ الله يُنَوِّرها لهم بصلاتي عليهم»، [رواه أحمد ومسلم].

اللّهم صلِّ وسَلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد... اللّهم أعذْني وإخواني المؤمنين من عذاب القبر، اللّهم نَوِّر علينا قُبورنا، ولا تَرُدنا على أعقابنا بعد إذ هَدَيْتنا للإسلام.

وليس من مؤمن إلا وهو يُستقبَلُ من القبر بضَمَّة وضَغْطة، قال ﷺ في سعد بن معاذ: «هذا الذي تحرَّكَ له العرشُ، وفُتِحَتْ له أبوابُ السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضُمَّ ضَمَّةً، ثم فُرِجَ عنه»، [رواه النسائي، وصححه الألباني].

فإذا كان هذا حالُ سعد بن معاذ سيد الأوس، السابق بالإيمان، والذي لا تُحْصى مناقبه، والذي اهتزَّ لموته عرشُ الرحمن.. فما بالك بسواه؟! والمؤمن والكافر والمنافق، كُلّ رهينُ عملِهِ في القبر، وحياة البرزخ حياةٌ بكل الأحاسيس والمشاعر التي كانت في الحياة الدنيا، ففي القبر الفرح والسرور والبُشرى، وفيه الحزن والغَمّ والهموم والآلام.

obeikandl.com